بقلم : عادل سمارة

ملامح الهجرات الفلسطينية

من نهايات القرن التاسع عشر الـــى أربعينات القرن العصرين

الاغتراب « او الهجرة الى الخارج » بشكل عام هو انفصال الانسان عن وضعه وواقعه الطبيعيين واضطراره للتحول الى واقع جديد وربما التعود على هذا الواقع الاخر ، « فالانفصال الذى يحصل بين العامل وبين انتاجه هو ظاهرة اغتراب » وكذلك الانفصال بين المواطن وبين بلده .

والاغتراب ، اذن ، فى فلسطين نعنى به هنا ابتعاد الانسان الفلسطينى عن ارضه التى يتواجد بينه وبينها ترابط شديد الصلة وعميق الجذور ، بناء على كون هذا الترابط هو الاساس المادى لحياته .

وسنعالج طبيعة هذا الاغتراب ، واسبابه ومفاعيله ايضا على المجتمع الفلسطينى .

ولعل من المناسب الاشارة الى بعض الاوليات فيما يتعلق بفلسطين كبلد ، فهى جزء من الشرق العربى فى اسيا ، وتبلغ مساحتها ٢٦٢٣٠ كم مربع . ويتكون سطحها من ساحل على البحر فسلسلتين جبليتين بينهما سهل يدعى الاغوار ، ثم منطقة فى الجنوب تبدا طبيعتها بالتحول الى كثبان من الرمل الى ان تغدو صحراء فعلية ، لكنها بالاجمال منطقة خصبة زراعيا بغض النظر عن مدى استغلال ارضها .

ان عودة قصيرة الى الوراء تبين لنا طبيعة نظام الحكم الذى كانت تخضع له فلسطين فى العهد التركى ، والذى ابانه كان الفلسطينيون يعانون نماذج اضطهاد عديدة . اهمها وعلى راسها اضطهاد السلطة العثمانية الرجعية والمستبدة ، ثم اضطهاد ادوات السلطة هذه من الامراء ورجال العشائر الذين كانوا يضربون دائما بحراب السلطة ، وعليه فقد كان هناك اغتراب ايضا فيما يتعلق بمجهود الفلاح ، فهو وان كان يعيش فى ارضه الا انه كان محروما من الكثير من خيراتها الناتجة عن تفاعل جهده مع عطاء الارض .

ولم يتغير الامر فى عهد الانتداب البريطانى ، حيث بقيت البلد على حالها ، الا ان علاقة الفلاح الفلسطينى بارضه كانت على جانب كبير من الاصالة والعمق ، وهذه العلاقة ناجمة عن طبيعة الانتاج القائم فيها ، اى الانتاج الزراعى ، حيث كانت اغلبية السكان يعتمدون على الزراعة طبقا لاحصاءات الانتداب البريطانى عام(١) ١٩٢٣ م .

ومن حيث التركيبة السكانية فانه حتى اواخر سنى الاحتلال البريطانى كانت فلسطين بلدا ذا اديان اساسية ثلاثة الاسلام والمسيحية واليهودية ، وكان لكل منها حق ممارسة الشعائر الدينية ، وحق المواطنة بالتساوى علاوة على العلاقات الجيدة التى كانت قائمة بينهم .

يقول بن هلبرن (٢) : كان اليهود يتنقلون بحرية بين فلسطين وبقية الاجزاء الاخرى

(١) Colonial Office, "Report on Immigration, Land Settlement and Development" London 1930.

(٢) بن هلبرين : فكرة الدولة اليهودية كامبردج ١٩٦١ ص ١٠٥

للامبراطورية الشاسعة ، ومن شمال افريقيا الى بلاد البلقان ، تماما مثل المسيحيين والمسلمين ، .. ولكن بعض المهاجرين ذهبوا الى القسطنطينية او دمشق او القاهرة وحيث كانت الظروف الاقتصادية والسياسية مناسبة لهم اكثر منها فى فلسطين .

تاريخ الاغتراب الفلسطينى : —

ترتبط فلسطين فى معظم مجالات الحياة فيها بسورية الكبرى ولذلك فقد بدات حركة الهجرة فيها مع بداية هذه الحركة فى سورية ايضا ، وتعود بداية هذه الحركة الى مابين ١٨٧٠ — ١٨٧٤ م . ويرد ذلك حسن حدة قائلا : « مع وفاة يوسف كرم فى منفاه بايطاليا ، حيث هام رجاله وهاجروا الى البرازيل واسبانيا » (١) والواقع ان رد هذه الحركة الى اساس منفرد او جزئى كهذا ، لا يقدم التعليل الكافى ، ولكن يمكن ان يكون احد الاسباب المؤثرة او الدافعة الى الاغتراب .

وعلى وجه الاجمال فقد بدات حركة الاغتراب الفلسطينى هذه مع منتصف القرن التاسع عشر الى العقود الثلاثة من القرن العشرين متاثرة اكثر باواخر فترة الحكم التركى ذات الطابع الارهابى ، وكذلك بارهاصات الحرب العالمية الاولى .

ويؤرخ حسن حدة عملية الهجرة الى الولايات المتحدة بعام ١٨٧٨ ، اما الهجرة الى هناك بغزارة فقد امتدت ما بين ١٨٩٩ — ١٩٢٤ حيث تراوح عدد المهاجرين العرب ما بين ١٢٠٧ كحد ادنى عام ١٩٢٣ وحد اعلى ٩٢١٠ فى عام ١٩١٣ . والسبب فى قلة عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة عائد الى ان الحكومة الامريكية وضعت سقفا للعدد المسموح به .

يقول حسن حدة فى عام ١٨٥١ هاجر حنا خليل مرقص من بيت لحم الى امريكا الشمالية والبرازيل ، وعام ١٨٧٠ هاجر شقيقان من اسرة زخريا من بيت لحم الى البرازيل ايضا .

ويورد سعيد حمادة (٢) الاحصائية التالية حول عدد الفلسطينيين الذين يعيشون فى الخارج فى بداية الانتداب البريطانى .

عدد الفلسطينيين المغتربين حتى ٣ اكتوبر ١٩٢٢ : —

القطر	المسلمين		المسيحيين	
	ذكور	اناث	ذكور	اناث
استراليا	——	——	١٩	١٣
الجزائر	١	——	——	——
مصر	٣٦٢	٢٥٢	١٥٢	٩٠
فرنسا	٢	——	٢٢	١٢
المانيا	٢	——	٣٨	٢٦
مراكش	١	——	٤	——
بولندا	١	——	——	——
روسيا	١	——	٤	——
سوريا	٤٦٠	٢٧١	٨٦	٣٦
شرق الاردن	١٠٤٦	٧١٧	٦١	٣٤

(١) تاريخ المغتربين العرب ، حسن حدة ص ١٧

(٢) الاقتصاد فى فلسطين — الجامعة الامريكية ص ٣٧

جنوب ووسط امريكا	٣٤٨	٥	٥٢٥٠	٣٢٦٧
تركيـــا	٥٨	١٧	١٢	٥
بريطانيا	١	———	٣	٣
الولايات المتحـدة	٤١٢	١٤	١٠٦٧	٢٨٥
دول اخرى	٦٧	١٧	١٣٢	٨٦
المجمـــوع	**٢٧٦١**	**١٢٩٣**	**٦٨٥٠**	**٣٨٥٧**

نلاحظ من اللوحة المدرجة ان نسبـــة النساء قليلة بمقارنتها مع الرجال فى مجال الهجرات ، فهى بمعدل النصـــف فقط ، وكذلك فان عدد المهاجرين من المسيحيين حوالى ثلاثة اضعاف عدد المهاجرين مـن المسلمين مع ان عدد السكان المسلمـين اكثر بكثير من المسيحيين ويعود هذا الى عوامل سنذكرها فيما بعد .

اسباب الهجـرات : ــ

للهجرات اسبـاب عديدة تعود فـى اساسها الى العوامل الاقتصادية بغض النظر عن التعبير المستعمل بصددها اضافة الى انها تلبس احيانا ثوبا سياسيـــا او اجتماعيا او ثقافيا او دينيا .

الاستعمار : ــ

كما اشرنا سابقا ، فقد خضعت فلسطين للاستعمار التركى فى بدايات القرن السادس عشر ، واستمر هذا الى الحرب العالميـة الاولى حيث حل محله الاستعمار الانكليزي ، ومعروف ان شأن الاستعمار هو الاستغلال الاقتصادى للاقطار المستعمرة استغـلالا يقع على الجماهير عموما باستثناء بعض الشرائح التي تبيع ولاءها الوطني فى سبيل مصالح خاصة كالامراء الاقطاعيين فـى العهد التركى ، والمتعاونين مع بريطانيـا عند احتلالها لفلسطين ، ولذلك فان مـن شأن هذا الاستغلال الاقتصادى والاضطهاد القومى ان يؤديا الى رد مزدوج فهو امـا المقاومة واما الاغتراب عن الوطن .

والبلد الخاضع للاستعمار لا يملك فى الاساس سياسة تتعلق بالمهاجرة بـــل بالعكس يخضع لسياسة المهاجرة التـى تضعها الدولة المستعمرة ، والتى بمقتضاها ترمى الى تفريغ البلد من الفئة الواعية من ابنائه وهذا الوضع على العكس من الاقطار المستقلة حيث تضع الدولة سياسة خاصة بالمهاجرة تتلائم مع المصالح الوطنيـــة والضرورات المحلية القائمة فيها .

لقد ازدادت هجرة الفلسطينيين مثـلا بعد الحرب العالمية الاولى حيث ارتفعـت الاسعار الى حد كبير شعر معه المواطن ان ليس بامكانـه الاستمرار فى مثـل هـذا الوضـع المعيشي ممـا اضطره الى المهاجرة بحثا عن حيـاة افضـل ، اضافة الى أن فلسـطين كبلـد زراعي ومتخلف اقتصاديا كانت تعاني من ضائقة التقلص النقدى ، ومعنى هذا قلة كمية النقود المتداولة فى السوق المحلـي لدرجة يمكن ان نسميها انعدام النقود من ايدى الكثيرين وانحصارها فى ايدى فئـة قليلة جدا ، لا تحرك هذه الفئة من النقود الا بمقدار حاجاتها واستهلاكها الشخصى ولا تقوم بتوظيف هذه الاموال فى مشاريع مما يخلق سيولة مالية ومصادر انتاجيـة تكون بدورها الرد الطبيعى على التقلص النقدى ، واثاره .

ان استمرار وجود اقتصاد زراعـى بحت يؤدى بالطبع الى استمرار وجودوضع التقلص النقدى هذا ، ويقود بدوره الـى عدم وجود فرص عمل للشباب سيان فى المصانع او فى مجال الخدمات ، وحيـث يتواجد فى احشاء المجتمع كل عام منه نسبة معينة من الشباب الذين اصبحوا فى سن العمل ، يغدو هؤلاء امام تحدى الجـوع او المهاجرة . مما يدفع الى اختيار الطريق

الاخر ، ان هذه النظرات الستاتيكية الى المجتمع غير كافية فليس الامر مجرد وجود نسبة من الشباب غدت فى سن العمل لهذا العام او ذلك ، فهناك ايضا نسبة معينة من التزايد السكانى ، وهى فى فلسطـين عالية شأنها شأن الاقطار المتخلفة ، حيث يغدو ارباب الاسر بحاجة الى مداخيل اعلى لتطعم هذه الافواه الجديدة ، وربما يكون تشغيل الابناء الكبار فى الاسرة او تشغيل النساء بديلا لزيادة المداخيل ، ولكن مثـل هذا لم يكن ليحصل فى فلسطين ولم يكن اقتصاد البلد ذو قدرة علـى استيعـاب ذلك . ولم تكن للاستعمار مصلحة فى هذا التحسين بل كانت له مخططات ابعد من هذا بكثير .

والتخلف الاقتصادى فى فلسطين لم يقتصر عليها وحدها ، بل كان هو الطابع العـام للمنطقة العربية كلها ، ولذلك وجدنا ان هذه المنطقة تتأثر بما يجرى فيها من قطر الى اخر ، مثل حروب القرم ، وحـرب الدردنيل وحرب السويس ، وحرب اليمن ، والسفر برلك ، حيث قادت هذه الحروب الى المجاعات والتى بدورها تدفع الشباب الى المهاجرة دفعا . واذا كان عامل التخلف الاقتصادى عائدا الى عوامل موضوعيـة وذاتية ربما كانت محلية فى غالبها ، الا ان الحروب المذكورة واثارها تعود الى عوامل داخلية بل هى مؤثرات مفروضة من تضارب مصالح الدول الاستعمارية تسحب علينـا اثارها السيئة فقط ، حيث تدفع الشعوب الفقيرة فى العادة بشكل او باخر ، تكاليف هذه الحروب والصراعات الامبريالية .

اضف الى هذا ان الفلسطينيين كانوا يؤخذون عنوة الى الجيش (التجنيـد الاجبارى) حيث يرغمون على القتال لصالح النظام الرجعى التركى من اجل المصالح التركية البحتة ، مما كان يقود بدوره الى رفض الجندية هذا الرفض الذى اما ان يعنى المقاومة للسلطة او المهاجرة الـى الخارج .

اما فئة المستنيرين والمفكرين فبالاضافة الى عدم وجود اعمال لهم ، فقـد كانوا يعانون من اضطهاد السلطة حيث يشكل هؤلاء طلائع وطنية وقومية تشكل خطـرا على السلطة الاستعمارية . وهجرة هذه الفئة من المجتمع ادت بالطبع الى حصول الهجرات السياسية والتى تمثل خطا جديدا من الهجرات .

وهناك عوامل عديدة اخرى منها تشجيع دول كامريكا للهجرات الفلسطينية من فلسطين ومنها عامل التقليد (١) وهو من المميـزات التى ينطبع بها المجتمع المتخلف فى العادة ، وكذلك تشجيع الاسر لاقاربها اى ان تشجع كل اسرة ابناءها على السفر الى الخارج .

وضع المغتربين فى المهجر : ــ

فى البداية كان المهاجرون الفلسطينيون مجرد افراد لا رابطة بينهم يخرجون مـن بلادهم صوب اقطار اخرى من اجل حياة افضل ، او هروبا من ظروف غير امينة ، ولكن حيث تكاثر العدد وتعددت العقليات والاتجاهات اخذت تنمو فى احشاء هؤلاء امور جديدة كان توجهها الاساسي هـو التعبير عن روحية بلدهم خاضعين فى ذلك لايحاءات منبتهم .

لقد كان التمسك بالعادات والتقاليـد العربية هو المسلك الاول الذى قاموا بـه اثناء اغترابهم ، وقد اخذ هذا تلك الاولوية نظرا لكونه ميزة موجودة لديهم ، وهـى ليست بحاجة الى جهد عقلى لتغذيتهـا وانمائها فيهم يقول حسن حدة (٢) «ولقد

(١) وعامل التقليد هو ظاهرة اقتصادية تعني قيام المجتمعـات الفقيرة بتقليد المجتمعات الغنية فى المجالات الاستهلاكية والغير انتاجية بالذات ، وبذلك يبقـى المجتمع المتخلف على نفس مستـواه الاقتصادى الضعيف .

(٢) نفس المصدر السابق .

كانت ايام العطل الاسبوعية تضمهم ولا تزال تسبغ عليهم بعض القيود الاقليمية وكذلك لا تزال اوقات المواسم والاعياد من الايام العزيزة التى يتندر فيها المغتربون ، ويتسابقون فى استرجاع الذكريات وتتبع الاخبار والرسائل الواردة من الوطن الحبيب » .

ان التمسك بهذه التقاليد ، هو دليل احساسات وطنية اجتماعية ، وهو ايضا دليل معاناة لفقدان جو معين وعلاقات معينة وارتباطات معينة لها نفاذها واصالتها فى مسلكياتهم وحياتهم . وهذه المعاناة تخلق بالطبع متاعب نفسية ، علاوة على المتاعب الاقتصادية التى يواجهونها فى اقطار لا يعرفون هم لغاتها او عاداتها ، ولذلك نجد الكثير منهم ما يزال يحمل الجنسيتين معا املا منه ورغبة فى العودة الى وطنه .

ومن ناحية ثانية ، وخاصة بعد ان مضى على اوائل المغتربين فترة طويلة من الزمن وانخرطوا فى التركيبة الاجتماعية للاقطار التى يعيشون فيها ، فقد بدؤا فى التعبير او الانتقال الى مجال الحياة الروحية فيه فتكونت هناك النوادى والجمعيات الادبية ، واصدروا مجلات وصحفا باللغة العربية ، وحتى التى لم تكن بالعربية فقد كانت موضوعاتها تعالج قضايا بلدهم الام ، فكانت هناك جمعية الشبيبة العربية الفلسطينية فى سان باولو ٩ ايار ١٩٣٩ ، والاتحاد العام للجمعيات العربية الفلسطينية فى البرازيل بعد عام ١٩٤٨ ، وصوت فلسطين التى يصدرها المغترب الفلسطينى (محمد عيسى) والتى تساعدها سوريا .

اما فى التشيلى فهناك الاستاديو الفلسطينى او النادى الفلسطينى ولجنة السيدات السوريات الفلسطينيات ، ومجلة بالاسبانية وتسمى (العالم العربى) وصاحبها الفلسطينى خورى ابو صياح .

ورغم ابتعاد المغتربين الفلسطينيين عن بلدهم ، الا ان هناك تأثيرا كبيرا لهم على بلدهم فى مجالات عديدة واخصها فى المجال الاقتصادى ، حيث يحول هؤلاء مقادير ضخمة من الاموال الى اسرهم ، وبالتالى يساهمون فى تحسين الوضع الاقتصادى فى البلد بشكل عام .

والاغتراب لا يؤثر على المهاجرين وحدهم ، بل ان له تأثيرا كبيرا على اهل الوطن ايضا ، ففى المجال الاقتصادى تتحول معاناة المغتربين وبؤسهم فى بلاد المهجر الى وجه افضل فى بلدهم حيث يحولون مبالغ من المال تساهم فى تحسين الاوضاع المعيشية فى الوطن .

ونلمس رفض الناس للهجرة من التعبير القولي الذى يتكرر على السنتهم كلما كانت هناك مناسبة لاجراء هذه التعابير القولية فيقولون فى الدبكة : ــ

ياما قلتلك ء السفر لا تـــروح
عودت عينى عالبكى والنوح

ويقولون ايضا :

يا زريف الطول وقف تاقلـــك
رايح عبلاد الغربة وبلادك احسن لك

خايف يا محبوب الروح تروح وتتملك
وتعشق الحلوين وتنسانى انـــا

ولا يخفى بأن هذه الاغانى تطفح بالتعابير العاطفيـة الجميلة والاصلية ايضا والتى لها تأثير عميـق علـى نفسية المواطن الفلسطيني فى الريف ذي النفسية الشفافة وخاصة فيما يتعلق بالحبيب او بالقريب ، ولا يخفى ايضا ان هذه التعابـير ترفض الهجرة مستعملة تأثير الحب والعشـق على نفسية من يريد الهجرة ومستعملـة سلاحا اخر وهو تجميـل صـورة الوطن ودمجها مع النظرة العاطفية كذلك .